حجة الإسلام
أبو حامد الغزالى
وطريقه إلى الله

لفضيلة الأستاذ الدكتور الشيخ
الحسينى هاشم
وكيل الأزهر الأسبق

بســـم اللـــه الرحمن الرحيم

« سَنُقرِئُكَ فَلاَ تَنَسى » (١)

إلى روح والدى الذى عمل دائماً لخيرنا وأنار بالحب طريقنا وكان لنا ولتلاميذه ومريديه نعم الوالد والناصح والمعين. اللهم بما ترك من علم وعمل صالح ارحمه وأحسن إليه واغفر له وأدخله برحمتك فى عبادك الصالحين الذين تجرى من تحتهم الأنهار وجنات النعيم وسلام على المرسلين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

احمد الحسينى هاشم

الكاتب الصحفى بجريدة الأهرام

هاشم الحسينى هاشم

بكلية الحقوق

---

(١) سورة الأعلى: اية ٦

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾

آية ١٤٩ سورة الأنعام

﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾

آية ١٣٩ سورة البقرة

مقدمة

بسم الله، وعلى هدى من نوره

حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى، ولد بطوس من إقليم خراسان.

وشب على نشأة الإيمان. يقطع أشواط حياته الشابة بحثاً عن المجهول وسيراً فى طريق الوصول. لأن الإيمان الدافق الذى ارتشف أكوابه المترعة منذ الصبا رعرع فى حياته الطلعة شباباً له انتفاضته العارمه، وأمله الموعود، لذا كان دائماً يولى وجهه شطر الله، ويقتحم لجج بحر المعرفة التى كان يستشعر فى نفسه الظمأ لها، وكل أمله أن يبحر فى مياهها الدافئة. وتتعايش روحه على نسماتها العبقة غير آبه بكل مباهج الحياة.

يقول الغزالى: «ولم أزل في عنفوان شبابى - منذ راهقت البلوغ، قبل بلوغ العشرين إلى الآن وقد أناف السن على الخمسين - أقتحم لجه هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور، لاخوض الجبان الحذور، وأتوغل فى كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة واتقحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة لأميز بين محق ومبطل، ومتسنن، ومبتدع. لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على بطانته، وإلا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته، ولا فلسفياً

إلا واقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلماً إلا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته، ولا متعبدا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته. ولا زنديقاً معطلا إلا وأتحسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته».

ويقــول:

«وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور: دأبى وديدنى من أول أمرى وريعان عمرى: غريزة وفطرة من الله، وضعتا فى جبلتى، لا باختيارى وحيلتى، حتى انحلت عنى رابطة التقليد. وانكسرت على العقائد الموروثة، على قرب عهد من الصبا».

ولكن هذه الحاجة الماسة التى احسها الغزالى، وذلك النهم فى البحث انتهى به إلى الشك.

ولكنه يملك الرصيد الضخم من الايمان بالله وبالرسالة وبالبعث، ولكن أين له السبيل إلى تكييف هذا الايمان العظيم فى كل ما يتعلق بذلك.

إنه درس، ودرس كثيرا، وانتهت به دراسته إلى أن كل فريق من الباحثين «يزعم أنه الناجى وكل حزب بما لديهم فرحون».

فراح يحدد أصناف الطالبين فانحصرت الفرق عنده فى أربعة:

١ ـ المتكلمون.
٢ ـ الفلاسفة.
٣ ـ الصوفية.
٤ ـ الباطنية.

فابتداء بعلم الكلام، فلم يشف غلته إنما هو «فى استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذاتهم بلوازم ملماتهم».

ثم ثنى بالفلسفة، وبعد أن اطلع على ما فيها من خداع وتخييل انصرف عنها، لأن العقل «ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب. ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات».

ثم درس مذهب التعليمية، وهو يقوم على القول بالحاجة إلى التعليم والمعلم، وأنه «لا يصلح كل معلم، بل لابد من معلم معصوم» فنقده.

ولما انتهى من كل ذلك أقبل على طريق الصوفية، وطريق الصوفية علم وعمل، إلا أن العلم أقل جانب من جوانبه، أما الجانب الذى يصل بالإنسان إلى النور والإشراق واليقين إنما هو الجانب العملى، وهذا النوع يحتاج إلى الإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، وذلك يقتضى الإعراض عن المال والجاه والشهرة وذيوع الصيت، ويقتضى الخلوة فترة تطول أو تقصر، يتفرغ فيها الإنسان تفرغاً كاملا إلى الله، مهاجرا إليه إلى رحابه.

والآن، لنترك المقدمة إلى الكتاب، ولنبدأ اللقاء المبارك فى صحبة الإمام. وحجة الإسلام....

مولده ونشأته

ولد الإمام الغزالى فى منتصف القرن الخامس الهجرى سنة ٤٥٠ هجرية بطوس، إحدى مدن خراسان، فى جو ملبد بالمنازعات لكثرة المسيحيين والشيعيين من المسلمين. وكان والده ورعاً تقياً، إذا سمع موعظة بكى. وكم سأل الله سبحانه وتعالى أن يهبه ابناً يكون واعظاً وفقيهاً، غير أن القدر لم يمهله ليتمتع بولده المحبوب. ولقد عهد والده به وبأخ له إلى صديق له متصوف. فنصح لهما أن يلتحق كل منهما بمدرسة من مدارس العهد.

وقد روى الزبيدى فى شرح الإحياء: أن سبب سياحة الإمام أبى حامد الغزالى وزهده فى الدنيا وزخرفها أنه كان يوماً يعظ الناس فدخل عليه أخوه أحمد فأنشده:

أخذت بأعضادهم إذ دنوا وخلفك الجهد إذ أسرعوا

وأصبحت تهدى ولا تهتدى وتسمع وعظاً ولا تسمع

فيا حجر الشجر حتى متى تسن الحديد ولا تقطع

فمنذ ذلك قطع أبو حامد علائقه بالدنيا، وساح فى الأرض على قدم الفقراء الناسكين. تاركاً وراءه جاهاً عريضا، وصيتاً عالياً ومكاناً بين أفذاذ العلماء مرموقاً. وهكذا تحققت فى أكبر

الوالدين إحدى أمنيتى الرجل.

وكان ما تركه أبوهما من مال فى عهدة الصوفى الوصى قد فنى فقال لهما «إعلما أنى قد أنفقت عليكما ما كان لكما، وأنا رجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال لى فأواسيكما به وأصلح ما أرى لكما، فعليكما أن تلجآإلى مدرسة، فانكما من طلبة العلم، فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما» ففعلا ذلك. وكان هو السبب فى سعادتهما، وعلو درجتهما. وقد عقب أبو حامد على هذا النص التاريخى بقوله:

«طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله».

وبدأت حياته التعليمية من السادسة تقريباً، وبدأ التحصيل من العاشرة، وهى الفترة التى يتفتح فيها عقل المتعلم، ويبدأ اتصاله بالآخرين. وهى الفترة التى تتأكد فيها العبادة أكثر، حيث يضرب تارك الصلاة لعشر كما جاء فى الحديث.

والذى يظهر أيضا أن الصوفى الوصى عليهما كان من التقى والورع والعلم بمكان بحيث رأى الوالد فيه ما يتمناه.

وأخذ الغزالى يشق طريق حياته فقرا طرفاً من الفقه بطوس على «أحمد بن محمد الرازكانى الطوسى»(١).

ثم انتقل إلى مركز علمى أكبر فى «جرجان» إثر سرقة كتبه وعودته فى هذه الحادثة كما يقول المؤرخون. وكان يستظهر كل

(١) حياة الغزالى درزويمر ص ٤٤

ما يقع تحت يده حتى لا تصبح له حاجة إليه بعد.

فى نيسابور:

ثم ذهب الغزالى إلى نيسابور حيث إمام الحرمين الذى لازمه الغزالى، فلم يفرق بينهما إلا الموت، وفى نيسابور ابتدأ حياة الكتابة والتأليف، وإذا نظرنا إلى مؤلفاته فى هذه الفترة نرى أن الزبيدى يحدثنا عنها فيقول فى كتابه «اتحاف السادة المتقين بشرح احياء علوم الدين» (١):

« ثم قدم نيسابور ولازم إمام الحرمين حتى برع فى المذهب والخلاف والجدل والمنطق. وقرأ الحكمة والفلسفة وأحكم كل ذلك، وفهم كلام أرباب هذه العلوم، وتصدى للرد على مبطليهم وإبطال دعاويهم، وصنف فى كل فن من الفنون كتباً أحسن تأليفها. وأجاد وضعها وتصنيفها».

ولما رأى الغزالى أنه قد آن الأوان ليشترك فى المعترك العلمى القائم أمام «نظام الملك» الذى يشجع العلم والعلماء خرج من نيسابور كما يرى جمهرة المؤلفين ويرى الأستاذ: «ماكدونالد»(٢) أنه خرج حين تسمم الجو وتلبد بالحقد من مناوئيه وخصومه الحاقدين عليه. وأياً ما كان فقد خرج منها وكان ذلك عام وفاة إمام الحرمين سنة ٤٧٨ هـ وعمره ثمانية وعشرون عاماً وكان له ثلاث بنات وولد اسمه «حامد» وهو الذى

(١) أبو حامد الغزالى، الأستاذ محمد رضا ص ٦
(٢) زويمر ص ٩٦

لقب به، وقد مات فى طفولته.

ولعب الشك معه دورين مهمين:

الأول: دور كان فيه الشك خفيفاً سمحاً من النوع الذى يعترى كثيراً من الباحثين.

والثانى: دور كان فيه الشك عنيفاً هداماً من الصنف الذى يعترى كبار الفلاسفة والمفكرين(١).

مر الغزالى إذن بمعركة شك عنيفة، ارتاب فيها المرتابون، واختلف حولها الباحثون.... فماكدونالد يتساءل: هل كان فى نيسابورأم فى بغداد؟ والدكتور زويمر يحدد نهايتها فيقول:

«ونحن نعلم أن تاريخ اهتدائه بعد شكوكه هو سنة ٤٨٨هـ»(٢) وهذا يوافق خروج الغزالى من بغداد.

فى المعسكر:

وخرج الغزالى من نيسابور إلى المعسكر عام ٤٧٨هـ وتولى التدريس ببغداد بالمدرسة النظامية ٤٨٤. ومدة كهذه وهى خمس سنوات لابد وأن تكون مليئة بالحياة الجادة الضخمة، خصوصاً من الغزالى الذى قال مشيرا إلى خلاف المعتزلة والأشاعرة فى معنى الرزق.

(١) الحقيقة فى نظر الغزالى : الأستاذ سليمان دنياص ٢٨
(٢) الغزالى ص ٨٤

«وتضـيـيع الوقت بـهـذا وأمـثـاله دأب من لا يمـيـز بين المـهـم وغيره، ولا يعرف قدر بقية عمره وأنه لا قيمة له فـلا ينبغى أن يضـيع الوقت إلا بالمـهـم. وبين يدى النظار أمور مشكلة، البـحث عنهـا أهم من البـحث عن مـوجب الألفـاظ، ومقـتضى الاطلاقـات، فنسـأل الله أن يوفقنا للاشتغال بما يعيننا(١) ولقد كانت حياته آنئذ حافلة بالشكوك التى أخذت تقذف به من علم إلى علم، ومن مكان لآخر، حتى انتهى إلى الصـحـارى وتصـوف وراح ينشـد الحقيقة».

ثم إنه بعد أن وثق بالعقل بعد دراسته لعلم الكلام انكب على مناهج الحقيقة مبتدئاً من علم الكلام إلى علم الفلسفة ثم مذهب التعليمية ثم مذهب الصوفية وقد رأى الغزالى أن علم الكلام لا يؤدى إلى الحقيقة - كما مر بالقارىء - وإنما هدف علم الكلام استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم، وليس هذا مقصود الغزالى، إنما مقصوده الحقيقى هو إدراك الحقيقة إدراكاً تؤيده الضرورة العقلية.

فى بغداد:

اخذ الغزالى يتقلب بين الطوائف، ولما لم يستمر علم الكلام معه ولم ينجح فى الامتحان - اتجه إلى الفلسفة، لكنه لم يجد فى الفلسـفة رغبـتة فـأبطلها هى الأخرى، ثم اتجه ثالثا إلى مذهب «التعليمية» فلم يرقه ايضا فاتجه أخيراً إلى المتصوفة. وفيها وجد

(١) الاقتصاد ص ١٠٢

ضالته المنشودة. فهم أهل الكشف والمعاينة وطريقتهم «علم وعمل» قال(١).

«.... ولما كان العلم أيسر على من العمل ابتدأت بتحصيل علومهم من مطالعة كتبهم مثل «قوت القلوب» لأبى طالب المكى رحمه الله، وكتب الحارث المحاسبى، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلى، وأبى يزيد البسطامى قدس الله أرواحهم، وغير ذلك من كلام مشايخهم، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعليم والسماع».

ثم بقي العمل وفيه يقول ايضا :

«فظهر لى أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات».

ولنلتقى الآن بالغزالى ليحدثنا بنفسه عن إحساسه فى هذه الحال النفسية التى لايحسن وصفها إلا هو:

«فلم(٢) أزل أتفكر فى الأمر مدة وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً وأؤجل العزم يوماً وأقدم فيه رجلا وأؤخر فيه أخرى، لا تصدق لى رغبة فى طلب الاخرة بكرة إلا ويحل عليها جند الشهوة فتغيرها عشية، فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسلاسلها إلى المقام، ومنادى الإيمان ينادى: الرحيل الرحيل، فلم يبق من العمر

(١) المنقذ ص ١٢١
(٢) المنقذ ص ١٣٦

إلا قليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل. فإن لم تستعد الآن للآخرة، فمتى تستعد؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع؟ فعند ذلك تنبعث الداعية وينجزم العزم على الهرب والفرار...... ثم يعود الشيطان ويقول: هذه حال عارضة، إياك أن تطاوعها، فإنها سريعة الزوال. فإن أنت أذعنت لها وتركت هذه الحال وذلك الجاه العريض والشأن المنظوم الخالى عن التكدير والتنغيص والأمن المسلم الصافى عن منازعة الخصوم - ربما التفتت اليه نفسك ولا تتيسر لك المعاداة فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريباً من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة. وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار، إذ قفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوماً واحدا تطييباً لقلوب المختلفة إلى، فكان لا ينطق لسانى بكلمة واحدة، ولا أستطيع البت، حتى أورثت هذه العقدة فى اللسان حزنا فى القلب، بطلت معه قوة الفهم ومراءة الطعام والشراب، فكان لا يساغ لى شراب، ولا تهضم لى لقمة، وتعدى إلى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم فى العلاج، وقالوا: هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج، فلا سبيل إليه بالعلاج، ثم لما أحسست بعجزى وسقط بالكلية اختيارى التجأت إلى الله التجاء المضطر الذى لا حيلة له

فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أريد في نفسي سفر الشام حذار أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمي في المقام بالشام فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم ألا أعاودها أبداً. واستهدفت لأئمة أهل العراق كافة إذ لم يكن منهم من يجوز أن يكون الأعراض عما كنت فيه سبباً دينياً إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في الدين وكان ذلك مبلغهم من العلم ثم ارتبك الناس في الاستنباطات وظن من بعد عن العراق أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة وأما من قرب من الولاة وكان يشاهد إلحاحهم في التعلق بي، ،والإنكباب علي وإعراضي عنهم وعن الالتفات إلى قولهم فيقولون هذا أمر سماوي. وليس له سبب إلا عين أصابت الإسلام وزمرة العلم ففارقت بغداد».

في الشام وبلاد الحجاز:

قال الأستاذ محمد(١) رضا: «فارق الغزالي بغداد وفرق ما كان معه من المال ولم يدخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال».

خرج من بغداد سنة ٤٨٨هـ قاصدا الشام ومكث بها ما يقرب من سنتين يعتكف مدة في مسجد دمشق حيث يصعد المنارة طول النهار. ثم رحل إلى بيت المقدس وكان يدخل كل يوم

(١) في كتابه عن الغزالي ص ١٣

الصخرة ويقفلها على نفسه. ثم تحركت فيه داعية فريضة الحج فسار إلى الحجاز.... كل ذلك فى عشر سنين وفى هذه الفترة تجلت له الحقيقة وعرف أن طريقة الصوفية هى الطريق الحق.

فى نيسابور ثانيا :

وبعد أن عاد الغزالى إلى «طوس» أحس بالفساد الذى استشرى بالعقائد، فخرج يدعو الخلق إلى الحق فدرس بمدرستها.

ويمكن(١) تقسيم حياة الغزالى إلى ثلاث فترات:

١ - الفترة التى سبقت شكه.

٢ - فترة الشك بقسميه.

٣ - فترة الاهتداء والطمأنينة.

فالأولى كانت مرحلة انتاج عقلى، والثانية كانت مرحلة شك وهى مرحلة كبيرة، إذ كانت من سن الصبا إلى أن تصوف، والثالثة التى اهتدى فيها إلى نظرية الكشف الصوفى.

(١) الحقيقه فى نظر الغزالى ص ٧٧ الاستاذ سليمان دنيا

شخصيته لدى الباحثين

سجل ابن طفيل الفيلسوف الأندلسى أن الغزالى متناقض فى بعض نظرياته حيث يقول: «(١)....... وأما كتب الشيخ أبى حامد الغزالى فهو بحسب مخاطبته للجمهور، يربط فى موضع ويحل فى آخر، ويكفر بأشياء ثم يتحللها ومن جملة ما كفر به الفلاسفة فى كتابه التهافت إنكارهم لحشر الأجساد وإثباتهم الثواب والعقاب للنفوس خاصة. ثم قال فى أول كتاب الميزان: «إن هذا هو اعتقاد شيوخ الصوفية على القطع».

تلك دعوى ابن طفيل:

وقد ذكر أحد العلماء أنه لا يوافق ابن طفيل على ماذهب إليه من أن الغزالى متناقض فى كتبه التى قدمها للجمهور، وأنه يرى أن دليل ابن طفيل غير منتج لدعواه لأمرين:

الأول: أن كلمة الصوفية عند الغزالى مقولة بالاشتراك، بمعنى أنه يطلقها أحياناً ويريد بها جماعة مؤمنين هادين مهديين، ويطلقها أحياناً ويريد بها جماعة مخلطين ضالين مضلين.... ثم يقول:

إنه بينما يثنى على الصوفية فى كتابه «المنقذ» ثناء عاطرا، إذ به يعقد فصلا فى كتابه «الكشف والتبيين فى غرور الخلق أجمعين» ينقدهم فيه نقدا مرا..... ثم يقول: فلابد أن يكون

---

(١) رسالة حى بن يقظان ص ١٩ - ط دمشق الثانيه

الصوفية فى كتابه «المنقذ» غير الصوفية فى كتابه «الكشف والتبيين».

الثانى: أن الغزالى برىء صراحة من الصوفية القائلين بالبعث الروحانى وحكم بكفرهم.

أما ابن الصلاح فقد رفع التناقض الذى وقع فيه ابن طفيل بالطعن فى نسبة الكتب التى تحمل التناقض إليه.

وأرى أن نفى التناقض كما رأى ابن الصلاح خير وأوفق من الرأى الأول، لأن اشتراك لفظ الصوفية عند الغزالى فى اطلاقها على المخلطين والهادين كلام غير متعين، خال من الدليل.

هذا، ومما يؤخذ على الغزالى إطلاقه لفظ الصوفية على الهادين والمخلطين لكن الصوفية بما تحمله من معنى عظيم تبعد وتمعن فى البعد عن أن يدخل فى إطارها المخلون والأدعياء.

طريق الحقيقة:

والعلوم الحاصلة للقلب منها ما يلقى فيه من حيث لا يدرى الإنسان، ومنها ما يكتسب بالتعلم.

والحاصل بلا تعلم ينقسم إلى: ما لا يدرى العبد من زين حصل له، وإلى ما يطلع معه على السبب - والأول يسمى إلهاماً والثانى يسمى وحياً ويختص به الأنبياء.

والقلب عند الغزالى له بابان: الأول مفتوح إلى عالم الملكوت، وهو اللوح المحفوظ وعالم الملائكة. والباب الثانى: مفتوح إلى الحواس الخمس وهذا غير خاف....

فالمفتوح إلى عالم الملكوت يكون بالتأمل فى عجائب الرؤيا والاطلاع فى النوم فعلوم الأنبياء والأولياء من داخل القلب. والحكماء والعلماء من الحواس. فعلم الأولياء والصوفية يأتى مباشرة من اطلاعهم على اللوح المحفوظ.

ومن الأدلة الواقعة ما روى عن عمر رضى الله عنه: ياسارية الجبل!! إذ انكشف له أن العدو قد أشرف عليه فحذره لمعرفته ذلك. ثم بلوغ صوته إليه من أعظم الكرامات.

وما روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: دخلت على عثمان رضى الله عنه وكنت قد لقيت امرأة فى طريقى، فنظرت إليها شزرا وتأملت محاسنها. فقال عثمان رضى الله عنه لما دخلت عليه: يدخل على أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه. أما علمت أن زنا العين النظر؟! لتتوبن أو لأعزرنك!!

فقلت: أوحى بعد النبى؟

فقال: لا، ولكن بصيرة وبرهان وفراسة صادقة

«ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور».

ويرى الغزالى أن قلب الآدمى مستعد لأن ينكشف له ملكوت الله، لولا ما يحول بينه من حواجز تمنعه. كظلمة المعاصى، وكونه معدولا به عن جهة الحقيقة. وكونه محجوباً أو جاهلاً للجهة التى يقع منها العثور على المطلوب. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«لولا أن الشـيـاطين يحـومـون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماء».

ويقول سبحانه:

«إنا عرضنا الأمـانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا».

الكونيات :

يرى الغزالى أن أول ما خلق الله «العقل».

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«أول ما خلق الله العقل فقال له: أقبل. فأقبل ثم قال له: أدبر. فأدبر».

وهو الذى قال الله فيه.

«وعزتى وجلالى ما خلقت خلقاً أعز ولا أفضل منك، بك آمر وبك أعطى».

ثم يرى أنه ينقسم على هذا العالم إلى ثلاث طبقات ويجعل العقل أولها:

١ - طبقة العقل.

٢ - طبقة النفوس.

٣ - طبقة الأجسام.

وجميعها مخلوقات لله..... فمنها ما يؤثر ويتأثر كالنفوس تتأثر من العقول وتؤثر فى الأجسام ومنها ما يؤثر ولا يتأثر كالعقول.

خلود النفس:

يرى الغزالى أن النفس شىء والبدن شىء آخر وليست الصلة بينهما صلة التلازم إذا فنى الجسم فنيت النفس، بل إنها ستبقى بعد موته وفنائه.

قال تعالى: **«ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون»**.

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر تسرح فى رياض الجنة».

رؤية الله:

يرى الغزالى أن العبد السعيد التقى يرى الله فى الدار الآخرة. والرؤية هناك إدراك تام أكمل من رؤية البصر. ثم يبين أن انطباق الأجفان يمنع من رؤية صورة الأشياء. فإذا ما تفتحت الأجفان تمكنت من رؤية الأشياء. فكذلك أيضاً روية الله تعالى لا تتأتى فى الدار الدنيا ولذا قال تعالى لموسى: «لن ترانى» ذلك لأن الدنيا هى أكبر حجاب يمنع ما يشوبها من كدورات وما يعلق بها من شهوات وعندما يكون الموت ينزاح ذلك الحجاب، وتتأتى الرؤية الكاملة.

البعث:

ويرى الغزالى حتمية بقاء الروح وعدم فنائها فهى التى سترى جزاءها فى عالم ثان هو العالم الأخروى أما كون الجسم معها أو

ليس معها؟ فهذا ما اضطرب فيه الإمام الغزالى، فبينما يصرح فى موضع أن الجسم سيبعث ويفسر السعادة الروحية فى الآخرة تفسيراً ربما يفيد عدم مصاحبة الجسم للروح اثناء تلك السعادة وصور كل شىء فى العالم تصويرا مادياً.

شخصيته التاريخية:

إن شخصية الغزالى واضحة بادىء ذى بدء، ذلك لأن شهرته العلمية والدينية والروحية طبقت الآفاق، واشتهرت بذكائها الخارق والمناظرة الرائعة. حتى كان كما اتفقت كلمة مؤرخيه أنظر أهل زمانه وأوحد أقرانه، فلم تر العيون مثله، ولم ير مثل نفسه. ولقد وصفه شيخه أبو المعالى عبدالملك الجوينى إمام الحرمين، وكان أستاذ عصره بلا مدافع، بأنه (بحر مغدق) وروى بأنه (بحر مغرق). وكلا المعنيين واضح فى حياته المترامية الأطراف، الفسيحة الأبعاد. وقد تدرج الغزالى فى حياته التى ابتدأها بالتعليم والتعلم والعبادة والزهد حتى تفتح قلبه لحقائق الوجود والغيبة وموقفه من الحياة التى طرح زخارفها بعد أن كانت فى قبضة يده، لأنه ولى وجهه شطر الله فحسب. وهكذا تسامت شخصيته فوق مظاهر المادة وحظت بالأ سرار.

فكان ما كان مما لست أذكره   فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

والذى يتعمق فى شخصية الغزالى يرى أنها ذات شقين أساسيين أو حياته مجال لفريقين:

الفريق الأول: وهم محبوه ومريدوه والباحثون الدارسون لحياته على الصعيد الروحى الرحيب، وهؤلاء هم الذين تعصبوا للغزالى ولمبدئه وصوفيته وأعجبوا به وولعوا أشد الولوع بمصنفاته العلمية الثمينة، فرأوا فيها ضخامة علمية لم تكتمل لأحد من قبل وها هو المحقق العارف الإمام أبو العباس المرسى أكبر تلاميذ ابى الحسن الشاذلى وقد سئل عن الغزالى فقال: إنى أشهد له بالصديقية العظمى» وروى أيضاً أبن السبكى فى الطبقات عن الشيخ العارف إمام الصوفية فى عصره أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم وقد باهى موسى وعيسى عليهما السلام بالغزالى وقال لهما: «أفى أمتكما مثل هذا؟» قالا : لا.

ومخرج هذا ونحوه فى نظره إجلال الحب وتعظيم المحبين وحسبنا ما يطالعنا به كلام طبقات أبن السبكى والمناوى والسمعانى وابن عساكر وابن النجار والحنبلى والفتح البغدادى. وعبدالغافر الفارسى والشعرانى وغيرهم.

أما الفريق الثانى فمعظمهم من الفقهاء والمحدثين وقد حملهم البغض والشنآن لينالوا منه.

لقد حمل البغض هؤلاء المنتقصين للغزالى ليقفوا منه موقف الكراهية والنقد اللاذع المر.

إنهم وقفوا له موقفاً يرمونه فيه بالانسلاخ من الدين وبأنه طوى بصوفيته بساط الشريعة كما يقول أبو الفرج ابن الجوزى فى كتابه «نقد العلم والعلماء» المشهور باسم : «تلبيس إبليس».

ومن الأمثلة المضروبة فى هذا: أنه ضاع لبعض الصوفية ولد صغير فقيل له: أو سألت الله تعالى أن يرده عليك؟ فقال: اعتراضى عليه أشد من ذهاب ولدى.

ويعقب ابن القيم على هذا الموقف من الغزالى بقوله: لقد كان تعجبى من أبى حامد هذا كيف يحكى هذه الحكايات على وجه الاستحسان لها والرضا عن أصحابها ويعد الدعاء والسؤال لله تعالى اعتراضاً.. لقد طوى بساط الشريعة طياً، إذ الدعاء مشروع بالإجماع. ومن بين المحبين والشانئيين «فريق ثالث».

هذا الفريق نظر إلى أبى حامد كإمام من أئمة الفكر الإسلامى نهض وراء الحقيقة بعقله وصورها كما تراها بصيرته النيرة المشرقة بنور الإيمان ويمثل هذا الفريق فيلسوف الصوفية ابن عربى الحاتمى وعبدالكريم الجبلى والشعرانى والسيوطى والتاج السبكى ومنهم من رأى أن أبا حامد وإن كان قد وصل القمة فى البصر والبصيرة والعلم والحقيقة إلا أنه إنسان يجوز عليه ما يجوز على سائر الناس.

وإن أبا حامد لينادى بمبدأ يوضح أن الحق أعظم من أقدار الرجال فهو يقول فى كتابه «معيار العلم» ، و«المنقذ من

الضلال».

««ضعفاء العقول يعرفون الحق بالرجال لا الرجال بالحق ، والعاقل يقتدى بقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه.

«لا تعرف الحق بالرجال بل اعرف الحق تعرف أهله» وإن تاريخ أبى حامد ليطفح بتلك المواقف الشجاعة التى يهيب فيها بالحق. ويرفع إلى قمة الفكر الإنسانى إذ له فى هذا المضمار باع طويل وردود يسجلها التاريخ ويحفظها التراث الصوفى.

فما أجل هذه الردود السديدة التى نراه فيها يظهر فى كتابى: «تهافت الفلاسفة» ، و«مقاصد الفلاسفة».

الغزالى كحجة للإسلام. وكإمام من أكبر الأئمة لا يمكن أن يتجمد عند نص دينى، أو يتوقف على مسألة، أى مسألة، بل لابد أن يعمل الفكر، ولابد أن يرود الحياة كما يجب. فإن كانت المياه وادعة هادئة فإن سفينته ستمضى وادعة هادئة، ولكن إذا تلاطمت الأمواج، أو تراكمت الأعاصير، فلابد من تكييف للحياة، ولابد من قيادتها من جديد قيادة عظيمة، تتسم بقوة المؤمن وشجاعة التقى، وسياسة المفكر.

وإن الإمام المصلح، والمفكر الصوفى لا يقف عند حد العبادة والزهد والصلة الأكيدة بربه سبحانه وتعالى، بل لابد أن يعيش فى الحياة ما دام فيها، ولابد أن يعايشها ما دام صاحب رسالة لها، وهو فى هذا غير بعيد عن خطة الإيمان العريض، بل فى صلب الطريق العبادى الذى يسلكه.

ولقد جاء الغزالى، وطلع نجمه على الأفق والحال فى حاجة ماسة له وللثورة والتغيير.

وقد طلع فى وقت ازدحمت فيه صفوف الشانئين والأعداء المتربصين بدعوته ورسالته.... وقف ينبههم بدعوته الكاملة، وصوفيته التى تخلع على الحياة ثوباً آخر...

فكيف يقابل هذه التيارات العاصفة؟

أو ماذا يعمل مع هؤلاء الأعداء المتربصين؟

وكيف يرد سهام الطعن الحانقة التى تتربص به وبدعوته وبكتبه الدوائر؟؟

ها هم أولاء علماء المغرب من الأندلسيين والأفريقيين من أكبر الحانقين على أبى حامد، وذلك لأنهم قاموا بأكبر جريمة تنتهك فى حق ذلك الإمام العظيم وهى إفتاؤهم بحرق كتبه، وقد تولى قيادة هذا العمل الرهيب القاضى أبو القاسم محمد بن قاضى الدولة التاشفينية.

وكان الفقهاء آنئذ لا تقطع الدولة أمراً دونهم، وكان هؤلاء الفقهاء على مذهب السلف فى الأصول وعلى مذهب مالك بن أنمر فى الفروع، فرأو بهذا أن فى كتب أبى حامد مخالفة لما ألفوه، فكتبوا إلى أمير المسلمين يطلبون تحريم قراءة هذه الكتب ووجوب إعدامها... ويروى عن أبى الحسن بن حرزهم ما حكاه السبكى فى الطبقات وغيره أن ابن حرزهم كان من أشد المنكرين على كتاب «الإحياء» ويقول: إنه بدعة، مخالف للسنة وأنه هو الذى طلب إلى السلطان جمع نسخ الإحياء، واجتمع الفقهاء ونظروا فيه، ثم أجمعوا على إحراقه. وكان ذلك يوم الخميس. فلما أمسى ابن حرزهم من ليلة الجمعة رأى فى منامه النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر رضى الله عنهما جلوساً والإمام أبو حامد بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم وكتاب «الإحياء بيده فقال: يارسول الله هذا خصمى،

مشيراً إلى ابن حرزهم، ثم ناول رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب الإحياء وقال: يارسول الله انظر فيه، فإن كان بدعة مخالفاً لسنتك كما زعم تبت إلى الله تعالى، وإن كان شيئاً تستحسنه حصل لى من بركتك فانصفنى من خصمى.

فاستحسنه النبى وصاحباه وأمر النبى صلى الله عليه وسلم بتجريد ابن حرزهم وضربه حد المفترى فضرب خمسة أسواط ثم شفع فيه أبو بكر رضى الله عنه وقال: يارسول الله إنما حصل ذلك منه اجتهاداً فى سنتك وتعظيما فعفا عنه أبو حامد عند ذلك. فلما أصبح ابن حرزهم وجد أثر السياط على ظهره وهو يتألم.. يقول ابن السبكى: فصار ينظر فى كتاب «الاحياء» ويعظمه ويبجله وهذه حكاية صحيحة رواها الشيخ الكبير ولى الله أبو العباس المرسى عن شيخه ولى الله أبى الحسن الشاذلى.

وإنها لمحزنة وأليمة تلك الصيحة التى صاحها الفقهاء فاستجاب لها أمير المسلمين «على بن يوسف بن تاشفين» فأمر بالتنقيب فى سائر البلدان، وشدد بالأيمان المغلظة عليهم، وجمع من نسخ الإحياء الكثير من بلاد الأندلس والمغرب الأقصى، ووضع ما جمع من الأندلسيين فى صحن جامع قرطبة، وما جمع من مراكش فى صحن مسجدها الجامع، وهكذا فى سائر الأقطار المغربية، وأشعلت فيها النيران هنا وهناك.

وحين علم الغزالى بهذا وهو فى بغداد أسف وحزن حزناً شديداً ودعا الله أن يمزق دولة التاشفين كما مزقوا كتبه، وروى ابن القطان فى كتابه (الجمان فيما سلف من أخبار الزمان) عن عبدالله بن عبدالرحمن (شيخ مسن من سكان فارس) قال: كنت ببغداد أو بمدرسة أبى حامد الغزالى فجاء رجل، فدخل المدرسة وحياها بركعتين، ثم أقبل على الشيخ أبى حامد فسلم عليه. فقال الغزالى للرجل بعد محاورة غير طويلة وبعد أن عرف أنه من أهل المغرب وقد دخل قرطبة وعلم أن الأحياء قد وصلهم قال: «ماذا فعلوا به....»؟ يعنى الأحياء، فصمت الرجل، فعزم عليه الغزالى ليقولن، فأخبره بأنه حرقوه، فمد كفه للسماء يدعو عليهم والطلبة يؤمنون حتى نهض أخص تلاميذه (محمد بن ترمرت) قائلا: ادع الله أن يجعل ذلك على يدى فقال الغزالى له: اخرج، سيجعل الله ذلك على يدك وراح هذا التلميذ المخلص يطوف فى ميدان حياته حتى انتهى به المقام إلى أن تعرف على شريكه فى تأسيس دولة الموحدين (عبدالمؤمن بن على) فاتفقا على إزالة دولة المرابطين (التاشفينية) وأخيراً نجح ابن تومرت نجاحاً باهراً فى إزالة المرابطين وإقامة دولة الموحدين على أنقاضها. وتم هذا بمساعدة ابن عبدالمؤمن أول أمراء الموحدين تلك الدولة التى قامت على مبادىء الغزالى وأفكاره وبهذا نرى كيف أن الغزالى خطا خطوات سياسية منقطعة النظير فى تاريخ الإنقلابات الثورية.

وكيف أنشأ دولة الموحدين حتى تمت لها الكلمة النافذة. وكيف قام بدعوتها تلميذه الثائر محمد بن تومرت الملقب بالمهدى. وبذا سجل التاريخ للغزالى تلك الصفحات الإنسانية الفذة حتى فى ثورته على الباطل لم يتقلد ثوب العناد، بل اتجه إلى رب العباد.

متى تصوف

لا يمكن القول بأن الغزالى تصوف مبكراً، وذلك لأنه وإن بدأ حياته متصوفاً عابداً زاهداً، إلا أن حياته كانت تشوبها فى بعض الأحيان مشاغل الدنيا، فكانت صوفيته متقطعة. بل إنه كان فى بادىء أمره ينكر على الصوفية أحوالهم حتى هدى على يدى شيخه «يوسف النساج» فقد روى الزبيدى فى شرح الإحياء عن قطب الدين محمد بن الأردبلى قال حجة الإسلام: كنت فى بداية أمرى منكراً لأحوال الصالحين ومقامات العارفين حتى صحبت شيخى «يوسف النساج» بطوس، فلم يزل يصقلنى بالمجاهدة حتى حظيت بالواردات، فرأيت الله فى المنام فقال لى: ياأبا حامد قلت: إن الشيطان يكلمنى قال: لا بل أنا الله المحيط بجهاتك الست. ثم قال: ياأبا حامد ذر مساطرك واصحب أقواماً جعلتهم فى أرضى محل نظرى. وهم الذين باعوا الدارين بحبى. فقلت: بعزتك ألا أذقتنى برد حسن الظن بهم فقال: قد فعلت والقاطع بينك وبينهم تشاغلك بحب الدنيا فاخرج منها مختاراً

قبل أن تخرج منها صاغراً فقد أفضت عليك أنواراً من جوار قدسي ففز ونل - فاستيقظت فرحاً مسروراً وجئت إلى شيخي يوسف النساج فقصصت عليه المنام فتبسم وقال: يا أبا حامد هذه ألواحنا في البداية.... الخ. ومن هنا أخذ الغزالي يطور حياته ويتقلب بين ميادين شتى ومجالات للعلم فبحث في «الفقه» عله يرى فيه ضالته المنشودة ولكنه وجده علماً غير ما يريد هو لأنه لم يحس قلوب الفقهاء تحقق بما كتبوا، ولم يلمس أرواحهم ترفرف فيما دبجوا، وهو يريد شيئاً يرضي الروح والنفس. ثم درس «علم الكلام» ليصل منه إلى الحقيقة ولكنه وجد علماءه بعيدين عن ذلك كأنهم فيما يذكرون عن الله يقيمون بناء هندسياً أو يخرجون عمليات حساب. ثم درس الفلسفة ليقنع يقينه برموزها فزادته شكاً على شك بألغازها الغامضة وافتراضاتها الباهتة.. ظل كذلك حتى التقى بشيخه الصوفي يوسف النساج الذي ظل يصقله حتى حظي بالواردات كما تبين آنفاً من قصة المنام التي رآها. فكان ذلك بداية اليقين ونهاية الشك. ومن هنا أخذ الغزالي نفسه بالمجاهدات الصوفية من الاعتكاف والعزلة في جوانب المساجد ومناراتها.

ولقد أتى الغزالي والفلسفة تناهض الدين، فقضى على المذاهب الجدلية، وصرع الفلسفة وأقام الحياة الدينية.. إذن تراث الغزالي نزوة من نزوات النفس، ولا خاطرة من

خواطر العقل، فيذهب بذهاب جيل، ويفنى بمرور عصر من العصور، بل هو خلاصة جهاد القلب والعقل، ووحى الروح والالهام، وفيض ونور من النبع الحق نبع العباقرة والأفذاذ(١).

وقد كان توجيه الغزالى لدنيا الروح والعقل توجيهاً قوياً، عانى هذا المفكر المصلح فى سبيله ما عانى. وكان هذا فاصلا بين شطرين من حياته، عاش الأول فقيها أصولياً متكلماً مؤرخاً متفلسفاً. وعاش الآخر صوفياً ناقداً مجدداً لعلوم الدين موجهاً لحياة الروح. وهو الذى هزم الفلسفة المشائية فى مسائل الالإهيات، فلم تقم بعد قائمة لهم، ففقدت هذه الفلسفة أهميتها واندمج بعضها فى الثقافة العامة. لذا لم يلمع فى التاريخ الإسلامى بعده فيلسوف من طبقة الفارابى وابن سينا وأبى بكر الرازى. وكانت الحركة الإنقلابية التى قام بها فى العلوم الدينية حركة إحياء. وبعث من جديد.

الجوانية الخلقية :

حينما بدأ الإسلام فى التوسع وفى نشر الحضارة والثقافة وبرع كثير من الأدباء والفقهاء والفلاسفة، ودرسوا وكتبوا فى أنواع العلوم لم يكن أحد يبذل جهده فى علم الأخلاق. التى بعث محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ليتمم مكارمها، اللهم إلا أن بعض المترجمين فى بيت الحكمة بدأوا بترجمة بعض

(١) اعلام التصوف الإسلامى جـ ٢ ص ١٤٢

أرسطو الأخلاقية. وحينما عمت الفلسفة فى دنيا الناس وفى عالم الإسلام توجه الفلاسفة نحو المنطق، ولم يلموا بعلم الأخلاق إلا الفارابى الذى كتب تعليقاً عن التراجم الخلقية والكاتب الوحيد الذى كتب فى هذا العلم هو «أبو على بن مسكويه» ولكن الذى دون علم الأخلاق وفنه وفلسفته على الروح الإسلامى والمبادىء الإسلامية والقواعد القرآنية أولا وأخيرا إنما هو الإمام «الغزالى» وذلك فى كتابين:

الأول إحياء علوم الدين وذلك بالعربية، والثانى كمياء السعادة وذلك بالفارسية.

وبهذه الخطوات المخلصة المشكورة استطاع أن يعالج جوانب كثيرة فملأ بهذا فراغاً كبيرا فى أخلاق اليونان وأكمل النقائص العديدة.

لقد عرف الخلق بأنه عبارة عن(١) «هيئة فى النفس تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية». فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة الحسنة، المحمودة عقلا وشرعاً - سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة - التى هى المصدر - خلقاً سيئاً.

فمعيار الحسن والقبح الاستعداد النفسى، فالخلق أمر جوانى

(١) أبو حامد « مهرجان الغزالى بدمشق» سنه ١٩٦١ ط مجلس الفنون والأدب

وليس هو العقل الذى يقوم به الشخص.

والأخلاق عنده ليست مواصفة سطحية، ولا تقاس أعمالها الفعلية إلا بمصادر الصفاء ونقاوة الضمير، كما أنها تقوم على الإيمان واليقين وتظهر ثمرة ذلك فى البراءة المطمئنة والرضا الكبير وهى عنده تتوخى الصدق والإخلاص وللصدق عند الغزالى تعريف:

هو (الصدق فى وصف العبد هو استواء «السر والعلانية» «والظاهر والباطن»).

وبالصدق تتحقق جميع المقامات والأحوال(١).

(١) الغزالى الأربعين ص ١٦٥

مراتب معرفة الغيب :

ومراتب معرفة الغيب عنده هي:

١ ـ **المرتبة الأولى:** إيمان العوام وهو إيمان التقليد المحض.

٢ ـ **المرتبة الثانية:** إيمان المتكلمين وهو ممزوج بنوع استدلال ودرجته حسبما يرى الإمام قريبة من درجة إيمان العوام.

٣ ـ **المرتبة الثالثة:** إيمان العارفين وهو المشاهد بنور اليقين والإمام الغزالى يثبت بالرؤيا كبرهان ودليل على أن هناك آلة للمعرفة غير الحس والعقل ويردد ذلك فى كثير من كتبه إنه يتحدث فى المنقذ من الضلال عن النبوة فيقول:

«وقد قرب الله تعالى ذلك على خلقه بأن أعطاهم أنموذجاً من خاصة النبوة وهو النوم» ولا يكتفى الغزالى بهذا بل ذكر الشواهد الشرعية والتجارب والقصص أما الشواهد: فقوله تعالى:

«والَّذِين جَاهَدوا فِيَنا لنَهدِيَنهُم سُبُلَنَا».

قيل هو نور يقذفه فى القلب فيفرق به بين الحق والباطل ويخرج به من الشبهات. وقوله صلى الله عليه وسلم :

«مَنْ عَمل بِما عَلِم وَرَثَه الله عِلم مَا لم يَعَلَم».

والقرآن يصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف ولم يكن علم الخضر عليه السلام علماً حسياً أو عقلياً وإنما هو العلم الربانى وإليه الإشارة بقول الله سبحانه وتعالى:

«وَعلّمنَاهَ مّنْ لَدُنَا عِلَماً»

ولكن كيف تنجلى البصيرة؟ ويتأتى الإلهام؟

إن الطريق إلى ذلك إنما هو تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والاقبال على الله. فالله هو المتولى للقلب والمتكفل بنوره، وإذا تولى الله أمر القلب أفاض النور فيه وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية. وسبيل ذلك الزهد وتفريغ القلب والاقبال على الله. فإذا صدقت ارادة العبد ارتفع الحجاب بلطف خفى من الله فينكشف له الغيب يقول الدكتور «إقبال». «على أنه لا سبيل إلى إنكار أن الدعوة التى نهض الغزالى تكاد تكون دعوة للتبشير بمبدأ جديد مثلها فى ذلك مثل الدعوة التى قام بها «كانت» فى ألمانيا فى القرن الثامن عشر ففى ألمانيا ظهر المذهب العقلى لأول عهده حليفاً للدين ولكن سرعان ما تبين أن جانب العقيدة من الدين لا يمكن البرهنة عليه حسياً فكان الطريق الوحيد إذن أن تنمحى العقيدة الدينية من سجل المقدسات وقد جاء مع محو العقيدة مذهب المنفعة فى فلسفة

الأخلاق ولذلك مكن المذهب العقلى من سيادة الالحاد تلك كانت الحال فى ألمانيا عندما ظهر «كانت» وكشف كتابه «العقل الخالص» عن تصور العقل الإنسانى فهدم بذلك ما بناه أصحاب المذهب العقلى من قبل وصدق عليه القول بأنه كان أجل نعم الله على وطنه. وإن التشكك الفلسفى الذى اصطنعه الغزالى على تطرفه بعض الشيء قد انتهى إلى النتيجة نفسها فى العالم الإنسانى إذ قضى على ذلك المذهب العقلى الذى كان موضع الزهو على الرغم من ضحالته وهو المذهب الذى سار فى نفس الاتجاه الذى اتجه إليه المذهب العقلى فى ألمانيا مثل «كانت» على أن هناك فارقاً بين «الغزالى» و«كانت» فان «كانت» تمشى مع مبادئه تمشياً لم يستطع أن يثبت فيه أن معرفة الله ممكنة أما الغزالى فعندما خاب رجاؤه فى الفكر التحليلى ولى وجهه شطر الرياضة الصوفية وألقى فيها مكاناً للدين قائماً بنفسه وبهذه الطريقة وفق لأن جعل للدين حق الوجود مستقلا عن العلم وعن الفلسفة الميتافيزيقية(١).

نظراته الفلسفية :

كانت نظرات الغزالى الفلسفية نظرات بعيدة وعميقة فلم تقف عند حد الاقتباس فقط .أو نقص الآراء فحسب وإنما كانت محاولة ناجحة لهدم ما بناه الفلاسفة الإسلاميون على غرار الفلسفة اليونانية فبين حججها الواهية وبراهينها الضعيفة.

(١) تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ص ١٠ و١١

بين الفلسفة والدين :

هذا وقد عالج النزاع المحتدم الذى شب بين الفلسفة والدين فظل متنقلا بفكره الخلاق المبدع يجول بين أطوار الفلسفة وأطوار الدين. رغم أن شعوره الدينى الجياش وقواه الباطنية الحساسة أكثر قوة، وأصلب متانة من القوى الفلسفية العقلية، إذ أنه لم يطمئن إلى مذاهب المتكلمين، ولا لأدلتهم العقلية المصطنعة، فهو لم يصل منها إلى مرحلة اليقين إلا بعد أن مر بطرق الشك التى تجاذبته كثيراً. وكثيراً فالشك فى حياة الغزالى يشكل دورا هاما وخطيرا فى التاريخ لشخصيته كمفكر مسلم، وكفيلسوف صوفى، لأنه يدل على نظر بعيد فى نظام هذا الكون وتطوره من ناحية، ومن ناحية أخرى لأنه متعلق بمسائل أساسية فى الفلسفة ولم ينته إليها القدماء. إذ أنه بحث فى نظريات المعرفة ومعيار اليقين وحتى لا يقع فى الحسبان - كما هو عند الفلاسفة - حصر الدين ضمن أحكام العقل اضطر الغزالى أن يناقش الفلاسفة مناقشة حادة وعنيفة معترضاً عليهم فى كتابه: «تهافت الفلاسفة» فى عشرين مسألة والمسائل التى كفرهم فيها هى:

١ - قدم العالم.

٢ - اقتصار علم الله على الكليات دون الجزئيات.

٣ - إنكار حشر الأجساد.

ولهذا أرى أن الفلسفة الدينية عند الغزالى أو علاقة الدين بالفلسفة عنده إنما هى تتلخص فى محاولته صقل الجانب الروحى، وبيان النزعة «الشعورية» فى دين الإسلام.. ومن ثم قدم فلسفة غير فلسفة المتكلمين والمتفلسفة الإسلامية معا تلك هى الفلسفة الدينية المعبرة عن الإسلام كدين.

الزمان والمكان :

إن الفلاسفة ينظرون إلى الزمان والمكان نظرة غريبة وعجيبة إذ يجعلون فارقاً كبيراً بينهما فبينما نرى أن المكان عندهم محدود إذ بهم يقولون بأن الزمان لا أول له ولا نهاية ولكن الغزالى يخالفهم فى هذا مخالفة صريحة فنراه يقول(١):

«كما أن البعد المكانى تابع للجسم فالبعد الزمانى تابع للحركة فإنه امتداد الحركة كما أن ذلك امتداد أقطار الجسم فلا فرق بين البعد الزمانى الذى تنقسم العبارة عنه عند الاضافة إلى «قبل» و«بعد» وبين البعد المكانى الذى تنقسم العبارة عنه عند الاضافة إلى «فوق وتحت».

السببية :

وفى هذه المسألة نرى الغزالى يقول: «إن الاقتران بين مايعتقد فى العادة سبباً وما يعتقد مسبباً ليس ضرورياً عندنا،

(١) تهافت الفلاسفه ص ٦٥

بل كل شيئين ليس هذا ذاك ولا ذاك هذا، ولا إثبات أحدهما متضمن لاثبات الآخر ولا نفيه متضمن لنفى الآخر فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر مثل الرى والشرب والشبع والأكل والشفاء وشرب الدواء وهلم جرا إلى كل المشاهدات من المقترنات فى الطب والنجوم والصناعات والحرف وإن اقترانها بما سبق من تقدير الله سبحانه لخلقها على التساوق لا لكونها ضرورية فى نفسه غير قابل للفرق(١).

فالمسألة عنده لا تتعدى وقوع حدثين متعاقبين فلا يلزم من تكرار حدوث أحدهما بعد الآخر أن يكون الأول علة للثانى. وهو فى رأيه هذا ممعن فى البعد.

وقد أجاب ابن رشد على ذلك قائلا.

«إن من رفع الأسباب فقد رفع العقل فرفع هذه الأشياء هو مبطل للعلم ورافع له».

وهذا حق فما من شك فى أن جميع العلوم تستند إلى قانون السببية.

تقسيم الفرق :

وقسم الفرق فى «ميزان العمل» إلى أربع:

تهافت الفلاسفه ص ٥٦

١ ـ فرقة المتبعين للأنبياء.

٢ ـ فرقة الإلهيين الإسلاميين من الفلاسفة.

٣ ـ فرقة الصوفية.

٤ ـ فرقة الجماهير الحمقى الذين زعموا أن الموت عدم محض وهو بعد هذا يأخذ فى تقرير الشقى والسعيد ومدى الشقاوة والسعادة عنده فنراه يحكم بأن المتبع للشهوات شقى دنيا وأخرى وأن العاقل هو الذى يسلك للسعادة طريقها وذلك بالتجرد عن مباهج الدنيا ومخالفة الهوى والتفكر فى الأمور الالهية فمذهبه فى الأخلاق هو مذهب الصوفية الذين ينشدون السعادة فى التقوى ويتهربون من الدنيا وشهواتها ويقبلون على الآخرة وجناتها.

فرق الباحثين :

درس الغزالى علوم الباحثين واستقصى كل مالدى فرقها من علوم وقد انحصر الباحثون وفرقهم عنده فى أربع:

أولا: بحث فى علم الكلام فوجده غير واف بما ينشده لأن علماء الكلام اعتمدوا فى أبحاثهم ومناقشاتهم على مقدمات غير يقينية تسلموها من خصومهم وهذا غير واف بالطبيعة وفى هذا تحدث الغزالى عن نفسه فى كتابه المنقذ من الضلال» حيث

يقول: «وقد كان أكثر خوضهم فى استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم. وهذا قليل النفع فى حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلا. فلم يكن الكلام فى حقى كافياً ولا لدائى الذى كنت أشكوه شافياً».

ذلك حديث الغزالى ورأيه فى علم الكلام.

ولقد عقب على هذا الكلام أحد مخرجى كتاب المنقذ قائلا ما حكاه الغزالى فى الاحياء:

«قد يظن أن فائدته - أى علم الكلام - كشف الحقائق ومعرفتها على ما هى عليه وهيهات، فليس فى الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف».

أما رأى السلف فهو أن ابن عبدالبر المتوفى سنة ٤٦٣ يقول فى كتاب «جامع بيان العلم وفضله»(١) نهى السلف رحمهم الله عن الجدال فيه والتناظر لأنه علم يحتاج فيه إلى رد الفروع إلى الأصول للحاجة إلى ذلك.

وليست الاعتقادات كذلك لأن الله جل وعز لا يوصف عند الجماعة - أهل السنة - إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم أو أجمعت الأمة عليه وليس كمثله شيء

المنقذ ص ١٩ تخريج الدكتور عبد الحليم محمود

فيدرك بقياس أو إنعام نظر وقد نهينا عن التفكير فى الله وأمرنا بالتفكير فى خلقه الدال عليه.

وعن مصعب بن عبدالله الزبيرى قال: «كان مالك بن أنس يقول: الكلام فى الدين أكرهه ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه»

ثانيا: بحث الإمام الغزالى فى الفلسفة وفى كتب الفلاسفة وانتهى إلى أن الفلاسفة ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ الدهريون ٢ ـ الطبيعيون ٣ ـ الالهيون

على أن علومهم أيضاً تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

قسم يجب التفكير فيه، وآخر يجب التبديع فيه وثالث لا يجب إنكاره أصلا كما بينا آنفاً.

ثم قسم علومهم إلى :

١ ـ الرياضيات: كعلم الحساب والهندسة الخ وتولدت منها آفتان

الأولى: أن من ينظرإلى براهينها الرائعة يعجب بها فيأخذ معها ما سمعه من كفر وتهاون بالشرع فيكفر بالتقليد المحض.

الثانية: وهى الناشئة من صديق للإسلام جاهل أنكر علومهم فلما عرف من هو واثق من علومهم اعتقد أن الإسلام مبنى على الجهل فازداد للفلسفة حباً وللإسلام بغضاً.

٢ ـ المنطقيات: وهى النظر فى طريق الأدلة والمقدمات وكيفية تركيبها. ويتولد منه آفات منها: أن من ينظر إليه فيراه واضحاً يظن ما نقل من كفر عنهم مثل هذا فاستعجل الكفر قبل الانتهاء إلى العلوم الإلهية.

ثالثا: الطبيعيات فى عالم السماء والأرض.

رابعا: الالهيات وهى التى فيها أكثر أخطائهم وفيها المسائل العشرون التى أشير إليها من ذى قبل.

خامساً: السياسات: وترجع إلى الحكم المصلحية وقد أخذوها من كتب الله المنزلة وحكم الأنبياء المأثورة.

سادسا: الخلقية: وجميع كلامهم يرجع إلى حصر صفات النفس وترتب على مزجهم كلام النبوة وكلام الصوفية آفتان.

الأولى: فى حق الراد حيث يرد الحق إذا كان من غير أهله.

ثانيا: آفة القبول وهى أن من استحسن بعض كتبهم استحسن ضمناً جميعهاً حتى ما تتضمنه من باطل ممزوج به.

ثالثا: قبل أن يتناول الغزالى التعليمية بالنقد درس مذهبهم أولا على غرار ما فعل مع الفلاسفة فقد ألف المقاصد ليبين حجتهم أولا وخصص فى المنقذ فصلا ذكر فيه بعض مسائلهم كدعواهم الحاجة إلى التعليم والمعلم واعتراضهم على الحكم

بالنص أو بالاجتهاد. وقد ذهب التعليمية إلى أنه لا يصلح كل معلم بل لابد من معلم معصوم وليس فى الحاجة إلى التعليم والمعلم خلاف إنما الخلاف يأتى فى معرفة المعلم نفسه هل هو ميت أو حى؟ فالتعليمية تقول: إن المعلم علم الدعاة وبثهم فى البلاد وينتظر مراجعتهم إن اختلفوا والغزالى يقول: إن معلمنا هو محمد صلى الله عليه وسلم وأنه علم الدعاة وبثهم فى البلاد وأكمل لهم التعليم وبعد كمال التعليم ليس موت المعلم ضاراً كما لا تضر عيشته(١).

أما مسألة الحكم بالنص أو بالإجتهاد فقد أجاب عنها الغزالى بقوله:

«إننا نحكم بالنص عند وجوده وبالاجتهاد عند عدمه» فمثلا من أشكلت عليه القبلة فعلية بالاجتهاد لأنه لو انتظر حتى يذهب إلى بلد الإمام فات الوقت وأيضاً من أراد افتاء فى مسألة من المسائل فعليه أن يجتهد رأيه أيضاً.

رابعا: ثم أقبل الغزالى على طريق «الصوفية» وبعد البحث والتنقيب انتهى به المطاف إلى هذه الطريق التى ختم بها رحلته التى هى رحلة حياته الشاقة بعد جهاد عنيف وانكب على دراستها فوجدها تتبلور فى إطار العلم والعمل فقد كانت عملية

(١) مقدمه المنقذ

الصقل والمجاهدة تابعة لعملية العلم والتعلم وقد أعجب الغزالى بطريقهم أيما إعجاب وقال فيهم:

«ولو جمع عقل العقلاء وحكم الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشارع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا».

ونظر الغزالى وجاهد نفسه وصقلها وحظى بالواردات وهنا تكشفت له الطريق ورأى وراء سلطان العقل طوراً آخر تفتح فيه عين أخرى يبصر بها شيئاً مما سيكون وأموراً أخرى العقل فى معزل عنها فأصوب الطرق فى نظره «طريقة الصوفية» لأن جميع حركاتهم وسكناتهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة.

من الشك إلى اليقين :

إنَ اختلاف الناس فى الأديان والملل واختلاف الأمة فى المذاهب بحر غرق فيه الأكثرون وهذا ما وعد به النبى صلى الله عليه وسلم: «ستفترق أمتى ثلاثا وسبعين فرقة الناجية منها واحدة» ولقد كان الغزالى يثق فى أن «الحقيقة لا تتعدد». وهو إذ يرى التعدد فى الأفكار والمقالات والأديان والمذاهب إلا أنه يرى أن الحق لا يكون إلا ديناً واحداً ومذهباً واحداًومقالة واحدة أو بعبارة أخرى لا يكون المعتقد إلا واحدا والطريق الحق إليه لا يكون إلا واحدا والتفكير المستقيم هو الذى يسلم إلى هذه الغاية(١) هذا وقد وقف الغزالى بنفسه وشاهد اضطراب الفرق واختلاف المذاهب وهو بطبيعته جبل على البحث ومعرفة العلم واستظهار كل مكنون - فراح الغزالى ينشد الحقيقة والعلم اليقينى ونشأ هذا عنده من انحلال رابطة التقليد لأن التقليد لا يوصل للعلم اليقينى ومن هنا بحث عن الطريق المؤدية فوقع فى ذهنه أن بيان حقيقة العلم من المسائل الأساسية فى الفلسفة الحديثة لأنها أساس نظرية المعرفة والفلسفة تدور حول ركنين أصليين وهما قيمة العلم. ونراه يقول فى تحديد العلم اليقينى هو العلم الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ولا يتسع القلب لتقدير ذلك بل الأمان من الخطأ ينبغى أن يكون

(١) مقدمه الإحياء : بدوى طبانة

مقارنا لليقين مقارنة لو تحدى باظهار بطلانه من يقلب الحجر ذهباً والعصى ثعباناً لم يورث ذلك شطاً أو انكاراً(١).

ثم نظر إلى نفسه فوجده عاطلا من كل علم موصوف بهذه الصفة ذلك لأن العلم طريقة أحد شيئين المحسوسات أو العقليات وقد تبين خطأ المحسوسات لدى الغزالى وقد ضرب لهذا مثلا حيث أننا ننظر إلى الكوكب فنراه صغيراً فى مقدار دينار ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض فى المقدار وأيضا العقليات لا أمان لها كالمحسوسات لأنه يمكن أن تطرأ على الإنسان حالة تكون نسبتها إلى العقل كنسبة اليقظة إلى النوم ولكن بعد هذه المرحلة التى تصارعت فيها المحسوسات والمعقولات لا يقف الغزالى حائرا مشدوهاً بينهما لأنه باحث عن الحقيقة باخلاص وتعمق لذا فقد رجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها ولم يكن ذلك بنصب دليل بل بنور قذفه الله فى الصدر وبعد اجتيازه مراحل البحث والتنقيب عن المعرفة الحقة خاض بحار الخلاف بين الأديان والملل واختلاف الأئمة فى المذاهب فابتدأ الطريق من البسائط فانهارت أمام تطوافه المحسوسات فانتقل إلى المعقولات فانهارت هى الأخرى ثم عادت الصحة إلى الإعتدال ورجعت الضروريات العقلية بنور قذفه الله فى الصدر ومن حاول أن

(١) المنقذ ص ٦٨

يرسم الطريق الصحيح للشغوفين بالمعرفة والمتطلعين إلى الهداية والمستشرفين إلى العلم بالملأ الأعلى.

وقد تعرض الغزالى لحملات عنيفة من النقد وجهت إليه بدافع من عناد ومحرك من نزعة ولكن النقد لم يكن سليما لأنه استشراقى غريب.

يقول بعض المستشرقين: «إن الغزالى سار على النمط المسيحى حيث دعا إلى التقشف والزهد وهذا باطل لأنه لم يدع إلى الرهبنة والتقشف من جهة ومن جهة أخرى فإن الزهد الكنسى كانت له صبغة من الرهبنة وكان يأمر بقمع الغرائز فى حين أن الغزالى يأمر بتزكية الغرائز كأمر الوحى»

أما من ناحية ما شنه من حروب فى ميادين متعددة لدى الفقهاء والباطنية والفلاسفة والمتكلمين فقد كان الدافع لهذا نشدان اليقين الذى لا يقبل الشك فالباعث على تفكيره الفلسفى هو المشكلة الفلسفية التى طالما بعثت غيره من كبار الفلاسفة وهى اليقين فى المعرفة. ومن جهة أخرى فإن الحقيقة التى تتميز بذلك اليقين إنما هى عنده (الحقيقة الصوفية) لا الحقيقة الدينية لأن الحقيقة الدينية كانت عنده وإنما التى طرأت على حياته الجديدة إنما هى الحقيقة الصوفية ومن جهة أن الموضوعات التى بحثها من صميم (فلسفة الدين) وهى التى تدور حول طبيعة

الدين ووظيفته وكما قال فرجيليوس فبرم: «إن فلسفة الدين بحث فى موضوع الدين من الناحية الفلسفية».

تأثره وتأثيره :

يقاس تأثر الإنسان الكبير بما استفاده وما عقله، وما حصله فى نفسه كما يقاس تأثيره بمدى ما قدمه للصعيد الفكرى من جوانب هادفه وإنتاج كريم. والغزالى حاز قصب السبق فى هذين المضمارين.

فبالنسبة للأول انتقى لنفسه المجالات التى اعتزم أن يقطع أشواطها ثابتاً كأقوى ما يكون الثبات راشداً كأروع ما يكون الرشد.

وهو فى هذا وذلك إمام حجة، ومفكر فيلسوف، وصوفى عارف بالله. وإذا كان صحيحاً ما قيل فى عرف الباحثين والمؤرخين أنه يجوز للباحث الحجة والمنقب الراوية أن يحكم على الشخصية التى يقف حيالها فإن حكمنا أمام هذه الشخصية التى تعالج بعض الجوانب فى عظمتها ليتواضع للغاية حيث أن شخصيته تلك حياتها، وذلك منهجها.. وهذه آراؤها..

وذلك الأثر الباقى من التراث الضخم العظيم هو ما خلفته.. إن شخصية كهذه، ليحار فيها الباحثون إن لم يتعمقوا أغوارها

ويدركوا أبعادها.

ولكن بالرغم من كل هذا وذلك فقد تعرض إمامنا حجة الإسلام من قديم إلى حفنة ثرثارة رمته مرة بالتناقض وعدم الإخلاص مستنكرين تصوفه وآخذين عليه عدم التحرى فى رواية الحديث.. ولكن بالرغم من كل هذه الشكليات كان ولا يزال حجة الإسلام. لقد حاول تجديد الروح الدينية وتخفيف غلواء الفرق. وبذا كان مجدداً بقدر ما كان متكلماً ومتفلسفا. ويجب ألا ننسى دعوة الغزالى إلى جمع الكلمة حول أهل السنة والجماعة فمن هنا نستطيع أن نقول إن النهضة الفكرية الإسلامية الحديثة مدينة له إلى مدى بعيد وما أجدرنا أن نرفع الغبار عن مخلفاته ونحيى تراثه الكريم ليتجلى على الصعيد الصوفى فى رحابة وسعة وثبات وإيمان إن الغزالى حينما أراد أن يتأثر وشاء أن يفلسف ويتفلسف دفعه حب الاستطلاع أن يقرأ كثيراً لفلاسفة الإسلام فاستوعب الكثير الوافر. كما استوعب الفلسفة اليونانية والفلسفة الشرقية واراء الرواقيين وبعض رجال مدرسة الاسكندرية أكثر مما استهواه المذهب المشائى وتمكن أيضاً من فلسفة ارسطو والفارابى وابن سينا.

وقد تقرر أن للغزالى فلسفة، وأن فلسفته دينية تقول باله قادر عالم. فعال لما يريد.

ولقد كان وهو على عتبة هذا الطريق يلم بما حوله من معارف وعلوم فلنستمع إليه حين يقول:

«وكان(١)العلم أيسر عليَّ من العمل فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم «يعنى الصوفية» مثل «قوت القلوب» لأبى طالب المكى رحمه الله وكتب الحارث المحاسبى والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلى وأبى يزيد البسطامى قدس الله أرواحهم، وغير ذلك من كلام مشايخهم حتى اطلعت على كنية مقاصدهم العلمية وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع فظهر لى أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات» لذا لم يكن الغزالى فقيهاً فقط كالشافعى وأحمد بن حنبل ولا متكلماً فحسب كالنظام والعلاف ولا صوفيا فقط كعمر بن الفارض ومحيى الدين بن عربى أو فيلسوفا كأرسطو وابن رشد.

إن كل تسمية من هذه التسميات يمكن أن تسىء إلى الغزالى إذا اطلقت عليه أو تنقصه بعض حقه على الأقل فلقد كان من التوفيق إلى حد بعيد فى العلم وفى الحق أن يسمى منذ زمن بعيد بـ (حجة الإسلام).

هذا... ومما يدل على عظمته ومكانته وتأثيره الكبير ما خلفه من ثروة فكرية عظيمة ومعارف خيرة للغاية تلك هى كتبه التى

(١) المنقذ من الضلال الغزالى

منذ أن طلعت على الوجود والكون يكرع من معينها ويرتشف من رحيقها ومنها:

١ ـ إحياء علوم الدين.
٢ ـ تهافت الفلاسفة.
٣ ـ الاقتصاد فى الاعتقاد.
٤ ـ المنقذ من الضلال.
٥ ـ جواهر القرآن.
٦ ـ ميزان العمل.
٧ ـ المقصد الأسنى فى أسماء الله الحسنى.
٨ ـ فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة.
٩ ـ القسطاس المستقيم.
١٠ ـ المستظهرى.
١١ ـ حجة الحق.
١٢ ـ مفصل الخلاف فى أصول الدين.
١٣ ـ كيمياء السعادة.
١٤ ـ البسيط.
١٥ ـ الوسيط.
١٦ ـ الوجيز.
١٧ ـ خلاصة المختصر.
١٨ ـ ياقوت التأويل فى تفسير التنزيل.

١٩ - المستصفى.
٢٠ - المنخول.
٢١ - المنتحل فى علم الجدل.
٢٢ - معيار العلم.
٢٣ - المقاصد.
٢٤ - المضنون به على غير أهله.
٢٥ - مشكاة الأنوار.
٢٦ - محك النظر.
٢٧ - أسرار علم الدين.
٢٨ - منهاج العابدين.
٢٩ - الدار الفاخرة فى كشف علوم الآخرة.
٣٠ - الأنيس فى الوحدة.
٣١ - القربة إلى الله عز وجل.
٣٢ - أخلاق الأبرار والنجاة من الأشرار.
٣٣ - بداية الهداية.
٣٤ - الأربعين فى أصول الدين.
٣٥ - الذريعة إلى مكارم الشريعة.
٣٦ - المبادىء والغيابات.
٣٧ - تلبيس إبليس.
٣٨ - نصيحة الملوك.

٣٩ ـ شفاء العليل فى القياس والتعليل.

٤٠ ـ إلجام العوام عن علم الكلام.

٤١ ـ الانتصار.

٤٢ ـ العلوم اللدنية.

٤٣ ـ الرسالة القدسية.

٤٤ ـ إثبات النظر.

٤٥ ـ المأخذ.

٤٦ ـ القول الجميل على من غير الإنجيل.

٤٧ ـ الأمانى.

وغير ذلك كثير... والغزالى فى جميع كتبه اضطلع بمجهود ضخم أخرج به للعالم ثروة علمية ضافية. وجميع كتبه قمة فى الفكر والعلم والدين وليس بها شىء يعيبها إلا ما أخذ على كتاب «إحياء علوم الدين» من إيراد بعض الأحاديث غير صحيحة إلا أنها لم يوردها الغزالى فى المسائل الأصولية والفروعية ولكنها جاءت من قبيل الترغيب والترهيب هذا مع أنها تتعارض مع النصوص القرآنية والحديثية.

حقيقة النبوة. «عند الغزالى»

واضطرار(١) كافة الخلق إليها

اعلم أن جوهر الإنسان فى أصل الفطرة خلق خالياً ساذجاً لا خير معه من عوالم الله تعالى والعوالم كثيرة لا يحصيها إلا الله تعالى كما قال: «وما يعلم جنود ربك إلا هو»

وإنما خيره فى العالم بواسطة الإدراك وكل إدراك من الإدراكات خلق ليضطلع الإنسان به على عالم من الموجودات ونعنى بالعوالم أجناس الموجودات.

فأول ما يخلق فى الإنسان حاسة اللمس فيدرك بها أجناساً من الموجودات كالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة واللين والخشونة وغيرها واللمس قاصر على الألوان والأصوات قطعاً بل هى كالمعدوم فى حق اللمس.

ثم تخلق له حاسة البصر فيدرك بها الألوان والأشكال وهو أوسع عوالم المحسوسات، ثم ينفخ فيه السمع فيسمع الأصوات والنغمات ثم يخلق له الذوق، وكذلك إلى أن يجاوز عالم المحسوسات فيخلق فيه التمييز وهو قريب من سبع سنين وهو طور آخر من أطوار وجوده فيدرك فيه أموراً زائدة على المحسوسات لا يوجد منها شىء فى عالم الحس ثم يترقى إلى

---

(١) أنظر المنقذ من الضلال للغزالى

طور آخر فيخلق له العقل فيدرك الواجبات والجائزات والمستحيلات وأموراً لا توجد فى الأطوار التى قبله.

«ووراء العقل طوراً أخر تتفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون فى المستقبل وأموراً أخر، العقل معزولا عنها كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات، وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز».

«وكما أن المميز لو عرضت عليه مدركات العقل لأباها، واستبعدها وذلك عين الجهل إذ لا مستند لهم إلا أنه طور لم يبلغه ولم يوجد فى حقه فيظن أنه غير موجود فى نفسه والأكمه لو لم يعلم بالتواتر والتسامع رالألوان والأشكال وحكى له ذلك ابتداء لم يفهمها ولم يقر بها».

«وقد قرب الله تعالى ذلك على خلقه بأن أعطاهم أنموذجاً من خاصية النبوة وهو النوم. إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب إما صريحاً وإما فى كسوة مثال يكشف عنه التعبير».. وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه وقيل له إن من الناس من يسقط مغشياً عليه كالميت ويزول عنه إحساسه وسمعه وبصره فيدرك الغيب لأنكره وأقام البرهان على استحالته وقال القوى الحساسة أسباب الإدراك فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها حضورها فبأن لا يدركها مع ركودها أولى واحق وهذا نوع قياس يكذبه الوجود

والمشاهدة فكما أن العقل طور من أطوار الآدمى يحصل فيه عين يبصر بها أنواعاً من المعقولات والحواس. معزولة عنها فالنبوة أيضاً عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور يظهر فى نورها الغيب وأمور لا يدركها العقل والشك فى النبوة إما أن يقع فى إمكانها أو فى وجودها ووقوعها أو فى حصولها لشخص معين ودليل إمكانها وجودها ودليل وجودها وجود معارف فى العالم لا يتصور أن تنال بالعقل كعلم الطب والنجوم فإن من بحث عنها علم بالضرورة أنها لا تدرك إلا بالهام إلهى وتوفيق من جهة الله تعالى ولا سبيل إليها بالتجربة فمن الأحكام النجومية ما لا يقع إلا فى كل ألف سنة مرة فكيف ينال ذلك بالتجربة؟

وكذلك خواص الأدوية فتبين بهذا البرهان أن فى الإمكان وجود طريق لادراك هذه الأمور التى لا يدركها العقل وهو المراد بالنبوة لا أن النبوة عبارة عنها فقط بل إدراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل إحدى خواص النبوة ولها خواص كثيرة سواها وما ذكرنا فقطرة من بحرها إنما ذكرناها لأن معك أنموذجاً منها وهو مدركاتك فى النوم ومعك علوم من جنسها فى الطب والنجوم وهى معجزات الأنبياء ولا سبيل إليها للعقلاء ببضاعة العقل أصلا وأما ما عدا هذا من خواص النبوة إنما يدرك بالذوق من سلوك طريق التصوف لأن هذا إنما فهمته بأنموذج رزقته وهو النوم ولولاه لما صدقت به فإن كان للنبى

خاصة ليس لك منها أنموذج ولا تفهمها أصلا فكيف تصدق بها. وإنما التصديق بعد الفهم وذلك الأنموذج يحصل فى أوائل طريق التصوف فيحصل به نوع من الذوق بالقدر الحاصل ونوع من التصديق بما لم يحصل بالقياس إليه فهذه الخاصية الواحدة تكفيك للإيمان بإصل النبوة فإن وقع لك شك فى شخص معين أنه نبى أم لا فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله إما بالمشاهدة أو بالتواتر والتسامع.

فإنك إذا عرفت الطب والفقه يمكنك أن تعرف الفقهاء والأطباء لا بمشاهدة أحوالهم وسماع أقوالهم وإن لم تشاهدهم، ولا تعجز أيضاً عن معرفة كون (الشافعى) رحمه الله فقيهاً. وكون (جالينوس) طبيباً معرفة بالحقيقة لا بالتقليد من الغير، بل بأن تتعلم شيئا من الفقه والطب وتطالع كتبها وتصانيفها فيحصل لك علم ضرورى بما لها فكذلك إذا فهمت معنى النبوة فأكثرت النظر فى القرآن والأخبار يحصل لك العلم الضرورى بكونه صلى الله عليه وسلم على أعلى درجات النبوة وأعضد ذلك بتجربة ما قاله فى العبادات تأثيرها فى تصفية القلوب.

وكيف صدق فى قوله «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم «وكيف صدق فى قوله «من أعان ظالماً سلطه الله عليه» وكيف صدق فى قوله «من أصبح وهمومه هم واحد (هو التقوى) كفاه الله تعالى هموم الدنيا والآخرة».

فـإذا جـربت ذلك فى ألف، وألفـين، والاف حـصل لك علم ضرورى لا تتمارى فيه.

فمن هذا الطريق أطلب اليقين بالنبوة لا من قلب العصا ثعباناً وشق القمر فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده ولم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر ربما ظننت أنه سحر وتخييل وأنه من الله اضلال فإنه «يضل من يشاء ويهدى من يشاء» وترد عليك أسئلة المعجزات فإن كان مستنداً إيمانك إلى كلام منظوم فى وجه دلالة المعجزة فينجزم إيمانك بكلام مرتب فى وجه الإشكال والشبه عليها فليكن مثل هذه الخوارق: إحدى الدلائل والقرائن فى جملة نظرك حتى يحصل لك علم ضرورى لا يمكنك ذكر مستنده على التعيين كالذى يخبره جماعة بخبر متواتر لا يمكنه أن يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معين بل من حيث لا يدرى ولا يخرج عن جملة ذلك ولا بتعيين الآحاد فهذا هو: الإيمان القوى العلمى وأما الذوق فهو كالمشاهدة والأخذ باليد ولا يوجد إلا فى طريق الصوفية فهذا القدر من حقيقة النبوة كاف فى الغرض الذى أقصده الآن وسأذكر وجه الحاجة إليه.

خاتمـــة

هذا هو الغزالى فى ذمة التاريخ.....

وتلك هى شخصيته التى اصطنعتها العناية الإلهية وكأنه كان على موعد مع القدر ليطالع عالم الناس ودنيا البشر بهذه الثروات العلمية الضخمة وتلك الثورات الفكرية الهادفة التى رادت الحياة العقلية بفلسفتها ونهضت بتياراتها فخففت من غلواء الثائرين وحفزت همم المبطئين.

هذا هو الغـزالى الذى طالـع الناس بإيمـان هـائل يعـمـر قلبـه الكبـير، وانسـانيـات فذة بلغت فى تفوقـهـا الايمـانى. الذى زخـر بعظمـة الرجـال إنه الذى جـدف فى الحـيـاة، واعـتـرك مـيـادينـهـا واختط مضمارا آلاقاً بنور الهدى والإيمان.

لقـد حـرك دولاب حـيـاته بيـديه البـريئـتـين مـنذ أن تركـه والده وفارق الحياة ولم يدع له من زينة الحياة الدنيا إلا الكفاف، فكان خير متجمل بالصبر والعفاف لقد تركه والده الورع التقى وترك معه أمنية عزيزة على نفسه. فكم كان ينشد الله ويناشد الأقدار أن يرى تحقيقها ليسعد بما تمناه.

هذا هو الغـزالى ـ الذى قطع أشـواطاً عدة وسـار طرقـاً شـاقة ينشد الحقيقة ويبحث عن الأمل الحلو الذى طالما راود أجفانه.

لقد كان يقلب وجهه فى السماء صباح مساء عله يلمس النور عله يرى بصـيـص الـهـداية يطل. لقـد ذهـب يتلمـسـه فى كـلام

المتكلمين فلم يقنعه وفى فلسفة الفلاسفة فلم يرقه حتى انتهى به المطاف إلى الصوفية الصافية إلى طريق الله الحق وهنا أبحر فى المياه الدافئة وأخذ يدير دفة حياته من جديد كأنه مولود جديد يعيش حياة جديدة وسط هذه الحياه الصاخبة اللاعبة، اللاهية المتمردة لقد أخذ يصقل نفسه وروحه بعيداً عن ضوضاء اللاهين، وشغل اللاعبين يعتكف فى المساجد والمنارات حتى ذاق برد حسن الظن وحتى اطمأن يقينه وصفا ورق.

إنه الإمام الحجة - جوانب العظمة فيه مازالت بعيدة عن أن ينالها بحث إلا برفق أو يمسها دارس إلا هوناً.

لقد حارت أقلام الأدب والفلسفة فى تصويرها كما ينبغى ورسمها كما يجب.

ولكن هو «الإمام» و «حجة الإسلام».

الفهرس

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
١٩٩٧/٤٥٥٩

الترقيم الدولى
I.S.B.N.
977 - 19 - 3209 - 8

مطابع الأهرام بكورنيش النيل